مهمات التجربة الأدبية

بقلم عزيز السيد جاسم

التجربة الادبية تجريديا هي حوار الاديب المتواصل مع حقائقه ، ولكنها وفي النطاق العملي ليست الا حصيلة التعامل بين الاديب وبين العالم الادبي . وتكتسب هذه التجربة أساسا طابعا اجتماعيا ، فهي ليست تجربة شخصانية أو امكانية فردية ممتازة . وتموضع التجربة بهذا الشكل الاجتماعي متأت من حقيقة كون الاديب مجموع علاقاته النظرية أو العملية في حقل الادب والادباء . ولذلك فثمة عوامل تقوم بتشكيل تجربة الاديب دون أن تقتصر تلك العوامل على الذات فحسب . فهناك مثلا تجربة الاديب الواقعية ، تلك التجربة التي تكون الخلفية الحقيقية لكل خلق فني أو أدبي . وهذه التجربة الحياتية هي تجربة الاديب الانسان الذي يرتبط وجوده الذاتي وحركته الذاتية بالوجود المجتمعي والحركة الاجتماعية ، وهذه التجربة مفروضة لا يد للانسان في رفضها . وهناك التجربة الفكرية التي تعتمد على الوعي المتزايد وتلقي النشاطات الفكرية والادبية باستمرار ، وهي تجربة الاختيار . واذ لا يمكن العزل بين المعايشة الاجتماعية والمعايشات الفكرية والادبية ، تتداخل التجربتان بتآخ حميم ترفد فيه الواحدة الاخرى بعملية جدلية مخصاب اتفضح التقسيمات الاكاديمية المبالغ بها بين الذات والمجتمع ، لان الحركة الديالكتيكية ـ وهي حركة الحياة السرية ـ تنفي التحديدات الرخيصة والحصر الميكانيكي الذي استحوذ في عالم النقد على مسائل التقييم . فالذات حتى في أشد حالات تفردها تكتسب وضعا اجتماعيا وحالة لا ذاتية . وكذلك التجربة الادبية ليست ملكا للاديب ، وهي ـ مهما كان جنوح الاديب للفردية ـ تمهد لتجربة ذات مضمون اجتماعي .

اذن ، ولكون التجربة الادبية تحمل أبعادا أوسع من الابعاد الذاتية ، فنحن مسؤولون من أجل تبني التجارب الادبية الحية ـ دون الشرط السخيف الذي يعطي حق الكلام عن التجربة للادباء الكبار ! ـ وهذا التبني للتجارب الساخنة ينبغي أن يعترض على نويعات من تجارب سطحية لا عمق لها . فهناك (التجربة الهوائية) وهي تجربة اولئك الذين يتحصنون وراء مطالعاتهم ليحجبوا دخائلهم المثقوبة أو الفارغة . وهذه التجربة الهوائية قد تلجأ الى استعمال خطير لطقوس الكلمات فيمنح أصحابها أحيانا للعبارة بعدا ضوئيا زائفا لم تلتقطه ابتداء أية موقفية معاشة ، في حين يتكشف لنا ان انتفاء أصالته ـ مع ضوئيته الموهمة ـ صادر عن عطالة كلية ، كما رأينا غالبا في العديد من عطاءات بعض رواد مجلة (شعر) و (حوار) .

وهناك (التجربة المرتكسة) التي تتخذ بعدها الوحيد من منطلق مضاد للشرط الحضاري والتاريخي ، وهي تجربة منغلقة ومسورة باطار ذاتي ضيق . وهذه التجربة شخصية وعاطفية اشكل انفراقا خطيرا عن المسار الفكري والادبي الموضوعي . وغالبا ما تكون أوليات هذه التجربة وعيا سطحيا يتلازم ـ بشكل مرتعش ـ مع الانتهاضات التطورية ، ولكنه يتصدق بفل تواجدات معينة ـ عامة أو خاصة ـ فيتوقف لينزلق الى هاوية الارتداد . وهذه التجربة ميالة غالبا الى تفسير (العام) بـ (الخاص) و (القاعدة) بـ (الاستثناء) و (الواقعي) بـ (الظن) و (الحقيقي) بـ (الصدفة) و (الرياضي) بـ (الاحتمال) علاوة على انها تتبنى الشك « البيروني » (1) منهاجا في التعليل ، وتضع مقاسها المهزوز بديلا للمنظومات العلمية والفكرية ، وتعزل الذات عن الجماعة .

وهناك (التجربة المنقولة) وهي تجربة خطيرة جدا لا تحمل من التجربة سوى الاسم . ومبعث الخطورة فيها أن حاملها من أجل أن يدفع تهمة النقل المتبلد عنه ، يسعى الى تسلكات متطرفة ضاجة حفاظا منه على وجوده المتخلخل من الداخل بموازنات مفتعلة يستعمل فيها خارجيا موقفا تهريجيا . وهذه التجربة تتضح في المضمار الادبي عند أولئك الذين تمشي نتاجاتهم بسيقان مجلوبة قسرا . (ومن الممكن أن نقول أن مثيلات هذه التجربة قد انتشرت بانتفاخ غير طبيعي مع موجة دخول الادب الوجودي ، وتأثر بها في البداية بعض المترجمين) . وهذه التجربة المستوردة تستطيع أن تفعل فعلها ابان مرحلة الركود المريع الذي يتحول فيه الادب الى جسم هزيل مجهض بفعل عوامل سياسية معينة . أن الادب العربي يتمركز حول جسر أساسي هو المساهمة في الدفع الحضاري لشعبنا ، في حين ان الصيحات (العدمية) و (اللاملتزمة) والتي تعبر لنا من مواقع القيح والورم والفش في مجتمعات التقنية الرأسمالية تشكل اعاقة ضارة فيما اذا استنسخت .

واذ يبدو من مستلزمات تطوير الحركة الادبية ابعاد هذه الاشباه (2) عن تصدر التجربة الادبية فاننا لا نغفل عن وجود نوع آخر من التجربة يقف وسطا بين السلب والايجاب ، ويصلح أن يكون رصيدا جيدا اذا توافرت عوامل عديدة تعمل على شل الازدواجية فيه واماتة روح اللامبالاة وتغذية الوعي الخالق . أن هذه (التجربة السلبية) تحمل صورا منعكسة عديدة تتلقاها بكل سلبية دون أي جهد أو فعالية تتدخل في الكشف والتنقية والاختيار . وهذه التجربة تتمثل احيانا عند القراء او الكتاب الذين عجزوا عن التوفيق بين اختياراتهم الايديولوجية وبين دورهم العملي ، فظلوا معبرا لتجارب عديدة وغنية ، لكنهم يؤدون صلاتهم الوحيدة : انتظار التلقيح من سواهم ، وتسمرهم في الهامش حيث تتفسخ المسؤولية .

ان التجربة ـ أي تجربة ـ من حيث انها معاملات مستمرة بين الانسان والواقع لا تظل مرتبطة عند حدود هذه العلاقة فحسب ، فالتجربة ، على اعتبار انها المردود الذي يخلف العلاقات ، لا تظل محافظة على مثل هذا الشكل من الانجرار المتخلف ، بل هي تتطور من حالتها النشوئية الى حالة جديدة من الفعالية الايجابية . لذلك فهي النتيجة المركبة للعمليات الصراعية ، التي تتطلع بعد ذلك الى دورة أخرى تتحكم فيها نوعا ما بالعلائق الصراعية . وحيث أكدنا في البدء المضمون الاجتماعي للتجربة ـ من حيث ان الانسان مخلوق اجتماعي تماما ـ فان التجربة تحمل الشيئين : الشكل الاجتماعي ، والقدرة العملية . لذا فالتجربة الادبية ليست تجربة بين القارىء والكاتب والادوات . وحتى وان كانت التجربة في حدود هذا الملحظ انما يعني ذلك فقط سوء الطوية المسبق الذي يستهدف تقزيم الادب ومسخ التجربة الواعية من قبل دعاة هذا الفهم . ان الاديب اجتماعي مسؤول ـ ولو لم يكن مسؤولا لما كتب اطلاقا ـ وان اللغة

---

(1) نسبة الى « بيرون » امام الشك المطلق ـ ٢٧٥ ق.م ـ الذي دعا الى عدم الحكم على وجود الشيء أو عدم وجوده .

(2) آثرنا الاقتصار على هذه الاشكال الثلاثة لضيق المجال .

التي يستعملها ليست مجرد ألفاظ بل هي أدوات عميقة المحتوى تحمل بعدها الاجتماعي والتاريخي . وان المتلقي نفسه وجمهرة القراء يتقاسمون مع الاديب تجربته ضمن أطر اجتماعية . أي أن كل الاشياء تؤكد المحتوى الاجتماعي للعطاءات الادبية . وهذه العطاءات هي النوى التي ترسم من حولها مجالها التجريبي . وهي اذ تعكس درجة عافية الاديب فانها في الوقت نفسه تعكس الوضع العام من حيث انها تترجم شيئا عصريا ما .

واذا كان عطاء (اليوت) يعكس اختيار اليوت نفسه فانه في الوقت نفسه يعكس انهيار القيم في عالم (أوروبا العنكبوتية) ، لان احتمالات تشخص أي تجربة تشخصنا كليا أمر غير وارد اطلاقا في ضوء التحليلات العلمية . ومن هذا المنطلق تكون التجارب الادبية انعكاسا تتبلور في واجهته التحركات الايديولوجية والسياسية والاجتماعية والنفسية . وبذلك تتزود كل هاتيك التجارب بالنفس التاريخي ، فلا غرابة أن تؤرخ (التجربة ـ القصيدة) أو (التجربة ـ الرواية) أو (التجربة ـ المقالة) برموز حضارية تختزن كل الاحداث الواقعية . فالتجربة الادبية هي منطقة التماس الحقيقي بين الاديب والتاريخ ، وهي جماعية كائنا ما كان محمولها ، ولانها هكذا فهي تحمل ارادة معينة تستهدف نشاطا مغيرا . ولكن أية نظرة نقدية تستطيع أن تكشف سلبية التجارب الادبية في واقعنا لكونها تعيش ضمورا عجيبا ونقصا تتحمل مسؤوليته أطراف كثيرة . فنحن نشهد مثلا ثانوية دور الاديب التي قد لا يكون هو السبب في اختيارها على الاقل ، ونشهد الاديب القديم الذي نفد سحره وآثر الصمت ، والاديب المعاصر الذي يعاني أفظع المحاصرات ، ورجل الادب الزائف الذي يتعكز على مهماز المساومة . نرى لوينات عديدة وأشكالا عدة كلها مسؤولة تاريخيا في كونها لم تسهم في القيام بأية تعبئة ثورية ولم تعضد قضيتنا العربية عبر ما تدخره من طاقات ابداعية متوفرة . ولذلك فهي تؤرخ صيحة خافتة لا تتعدى الوميض الخافت والمتقطع في محراب الرماد البشري . واحساسا منا بقسوة حقيقة التخلف الادبي ـ وهو طبعا تخلف يعكس المرحلة ـ يجب تنمية الشروط التطورية والتأكيد على تجاوز عوامل النكوص . وهذا يتم بتكريس الادب كليا للاسهام في معركة الخلاص وتشييد المجتمع الاشتراكي الافضل . كيف يتم هذا التكريس ؟.. هذا ما سوف نتكلم عنه .

أولا ـ التجربة الادبية تكون يائسة تماما اذا لم ترتو باستمرار من التواصل والتعايش الواقعي بشتى أشكاله . وان أي انقطاع من قبل الاديب عن المجتمع والاحداث ، ومهما كانت ثقافة ماضي الاديب سوف يعرض التجربة الى جفاف يتزايد باستمرار حتى درجة السقوط . أن المعايشات الحارة هي الوسط الوحيد الكفيل بتجدد الطاقات وتصليب الاختيار واشاعة التلاحم . ان الشاعر الذي يتشاغل ـ حاليا ـ بنظم قصائد لا صوت فيها للعام ، للآخر ، لضرورة اختيار الموقف ، انما يخون الشعر . وان الاديب الذي لا يعرف شيئا عن الجماهير سوى انها (الجمع المجرد) يخون الادب . واذ تبدو كلمة (الخيانة) هنا قاسية حادة فانما يبرر ذلك طبيعة المرحلة التي نجتازها . فأمام ضخامة التحديات المعادية لشعبنا العربي ، وفاشية الشركة (الصهيو أمبريالية) تكون كلمة الخيانة الوصف الوحيد الذي يناسب الاديب الذي يدير وجهه عن شعبه .

ثانيا ـ التجربة الادبية عند أي أديب تحتاج الى انتظام من أجل أن لا تكون عاجزة . ومتى كانت التجربة الفردية ـ وأقصد هنا بها مجموع تجارب الاديب ـ مرتبكة وغير موحدة ، فقدت قدرتها على التحويل والفعل . بل لا بد أن تنتظم جميع التجربات الفردية ضمن منظومة واحدة هي التجربة المتماسكة . وحيث ان توفير التماسك بهذا الشكل لا يتم لوجود تعارضات بين تجارب الاديب الفرد نفسها في الاسلوب أو في الغاية أو في الحجم أو في التغيرات الزمانية أو المكانية ، فان تذليل هذه المهمة لا يتم الا بفعل (الايدلوجية) .

ان الاديب الذي يمتلك مرشدا نظريا علميا وموضوعيا هو وحده الذي لا يخفق في تكريس نفسه لخدمة الحركة التقدمية . واذ يعجز (يوسف السباعي) مثلا أو (توفيق الحكيم) عن استيعاب شروط الولادة لانطلاقهما من أرضية الفكر البرجوازي المثالي ، فان (نجيب محفوظ) و (عبد الملك نوري) و (يوسف ادريس) يومئون في أغلب ما يكتبونه الى طبيعة اتجاربهم التي تنتظم حول قطب (المجتمع ـ الثورة) .

ثالثا ـ ان تخطي الواقع الادبي المتخلف يتم عبر التصعيد الايجابي لمسائل الالتزام الثوري من حيث ان الالتزام اكتسب مضمونا جديدا فرضته طبيعة مواقعنا المسورة بالالغام العدائية . فبعد أن كان الالتزام شعارا يتحمل شتى المناقشات السوفسطائية أملت علينا رياح القرن العشرين الالتزام كموقف وحيد يضمن لنا البقاء التاريخي والجغرافي والروحي بل وحتى الجسدي . لذا فان الضرورة تقضي بابعاد كل التجارب الظلامية والرومانسية الشخصية والغيبية وتجارب (اللامنتمي اللاثوري) بتقوية التجارب المشرقة التي تسهم في تنشيط عمليات الخلق الثوري . بحيث يكون ذلك الاساس الذي تتشكل فوقه كافة البنى الادبية دونما أي محاولة تعسفية في فرض أسلوب معين وتعميمه . فبقدر ما تكون هناك صرامة في عدم التهاون بخصوص الشعار الرئيسي (الادب في المعركة) تكون هناك ديمقراطية كاملة في حرية الاداء بأي أسلوب أدبي . آذ من الممكن جدا أن تتضافر في أرضنا الاساليب الواقعية والرمزية والسوريالية من أجل تبني مسألة الانسان العربي . وان أولئك الاكثر اقترابا من آلافق الكفاحي للانسان العربي هم الذين يسهمون هذه المرحلة ، ومن خلال نتاجاتهم تتأنسن العطاءات الادبية بعمقها الحقيقي . ان ما كتبه عبد الوهاب البياتي وممدوح عدوان وألفريد سمعان وسعدي يوسف وحميد سعيد وحسب آلشيخ جعفر ، مثلا ، ليس الا بلورة للوعي العربي المتمرد والمحس الاصيل بالحرية كضرورة وحياة ، ولذلك فهو ما يدخل في صميم التجربة الكبرى المكرسة من أجل الانسان العربي . وفي الجهة الاخرى ، وعلى ضفة ما ، تقف (عائكة الخزرجي) مثلا لتبث الله لواعج دنفها في قصيدة « بين يدي الله » (٣) وكأنها فطنت لتوها لعشقها هذا وتقرر : « وكيف تلاشت رؤى عالمي ـ فما من زمان وما من مكان » فانتفت (نكسة حزيران) لانتفاء الزمان ، وانتفت (فلسطين) و (المقاومة) لانتفاء المكان ! وبانتفاء الزمان والمكان تحول الكون الى فراغ تسكنه عائكة المتعبدة ...

---

(٣) نشرت القصيدة في « المعرفة » السورية العدد (٦٩) تشرين الثاني ١٩٦٧ .

الموت في الحياة

للشاعر

عبد الوهاب البياتي

الثمن ٢٥٠ ق.ل صدر حديثا

دار الاداب ـ بيروت

ترى الا يحق للنبي (محمد) أن يبكي دما في حضرة (الله) لان عائكة الورعة جدا تفاءلت في وقفها تلك عن نكبة العرب واهانة الديانات المقدسة ؟ (٤)

رابعا ــ وحيث أن التجربة المكرسة للعمل الخلاق هي تجربة غنية لانها تتطور من خلال العمل ، فهي اذن تكتسب قدرتها التطورية من النقد الذاتي المستمر . ان تطوير النقد المسؤول ــ لا النقد الليبرالي ــ هو وحده الذي يكشف الجوانب السلبية والمرتعشة والقائمة في تجربتنا الادبية . ولكن نظرة بسيطة لواقعنا النقدي تكشف عن طريقين في النقد : الطريق الاكاديمي وهو طريق القلو في الاحترامات الشخصية والشكليات بحيث تضيع المسائل المهمة والمختلف عليها وراء سيل من عبارات (الحضرة الموقرة ، اذا سمحت معاليكم ، وهو الفني عن التعريف : العالم والاديب والشاعر والعريق في الحسب والنسب ... الخ) ، وهذا الطريق لا يمثل اكثر من كونه فقاعات تتستر وراء القاب لامعة معينة لا تهدم جدارا ولا تبني آخــر !

وهناك الطريق الآخر والاكثر عداء للطريق الاكاديمي . فاذ يسعى النقد الاكاديمي من أجل انسجامات سطحية فان هذا يسعى من أجل تدمير كل عوامل الوحدة واللقاء . وهذا النقد الذي يتظاهر باحتضان الفكر التقدمي هو نقد غير هادف وغير مسؤول اطلاقا . ومن المحتمل انه يمثل حالة شبقية سادية افترضتها تعقيدات خاصة . ان أصحاب هذا النقد الذين يمثلون على الدوام وضعا عصابيا هائجا يشتمون كل شيء تحت واجهة الاخلاص ، ولذلك فهم يقفون جنبا الى جنب مع النقاد والرجعيين مهما كانت أدواتهم ومدخراتهم . ان الشرط الوحيد لاي عملية انتقاد هو المسؤولية . واذ تتحول المسؤولية من عبء ثقيل الى سلوك وأخلاقية حقيقية يستطيع الناقد أن ينتشل نفسه وينتقل الى موقع المساهمة البناءة .

ان الناقد يستطيع أن يصنع أشياء كثيرة بين الصلابة والمرونة . فهو بقدر ما ينتهج موقفا فكريا صلبا لا يتشوه بالمهادنة والتوفيقية ، يكون مرنا جدا في توفير المؤاخاة بين الاجنحة والخطوط المتعارضة وسيلة والمتفقة غاية .

خامسا ــ ان تعثر التجارب الادبية وانسحابها وراء التيارات السياسية المتعطشة للتناقض الحاد قد أوجد الادب في حالة غير صحية ، حالة من التمزق والتبعثر المفتي . ولذلك فما صارت اليه التجارب الادبية الكبرى انما هو شلل في الفعالية . وبالتالي انقطع التكنيك الادبي عن الاستراتيجية الاساسية وظلت النشاطات الادبية دائخة في دوائر محدودة مسيجة بأطر سميكة يشرف على صنعها ساسة انفعاليون . ان من المهام الحالية أن تتجاوز الامكانيات الادبية وضعها السابق وتتخطى العلاقات الفئوية والسياسية لتحقق لقاءها الضروري . وبذلك تستطيع هي نفسها ومن خلال هذا التكريس أن تفرض على الوضع العام للقوى السياسية عــلاقات مضيئة . كيف تقفز الامكانيات الادبية من وراء التعبويات السياسية المحلية الى الامام ؟ هذا ما يحتاج الى شرح منفصل يتناول بالضرورة الرابطة الادبية وكيفية تشكيلها وصلة ذلك كله بالجو السياسي السائد ومدى ايجابية هذه الرابطة وقابليتها ودرجة مناعتها .

المهم ان أحداث حزيران ١٩٦٧ تتطلب من الادب العربي أن ينتزع نفسه ثوريا من حدود مراوحته السابقة ليمنح الانسان العربي سلاحا هاما . أوليس هذا ما يجب أن يكرس كل شيء من أجله ؟!

العراق

عزيز السيد جاسم

(٤) سيدتي عائكة ، أظن الله خجلا من هذا التشبيب اللاهوتي . محمد جريح لان أمته جريحة بمدي الصهاينة القتلة . وعندما يكون محمد جريحا فان الله يغلق الابواب أمام العشاق . وانك لو كتبت لجراحنا لكنت فعلا بين يدي الله ! وعذرا ، عذرا سيدتي الكبيرة !

هذا الشهر

الكِفاحُ المُسَلّح

تأليف : دوغلاس هايد

ترجمة : سامي كعكي

كتاب هام وضعه رجل يعتبر حجة في حروب العصابات اذ أمضى سبع عشرة سنة متنقلا بين أوروبا وآسيا وافريقيا وأميركا اللاتينية ، دارسا ومراقبا ومحاضرا ، ووقف على أبعاد نشاط العصابات الثورية في هذه البؤرات الملتهبة من العالم المعاصر . ومن فصول الكتاب : الكفاح التقليدي ــ الكفاح القاهرة ــ حتمية التغيير ــ البناء الثوري ــ التحضير لمعركة الكفاح المسلح ــ جذور الثورة والتربة الثورية ــ أبعاد الكفاح المسلح في العالم المعاصر .

كتاب جديد يحتاجه العرب في كفاحهم المسلح العادل لتحرير أرضهم .